السحّارة

بدرية البشر

كانت زوجةُ أبي امرأةً قاسية، لا تشبه زوجات الآباء في الحكايات المعروفة، ولا تكفي لوصفها تلك النظرةُ الملتاعة – التي تطفر من عيون نساء عائلتي حين ترتسم حانية عليَّ – من جرّاء وجودي بين يديْ زوجةِ أبٍ غيرِ رحيمة. ذلك أنّ زوجة أبي كانت لا تداري قسوتها مثل زوجات الآباء الحاذقات بل كانت تردّ على جاراتها وهي تتهدّدني أمامهنّ:

– ماذا سينفعني إن أحسنتُ أم لم أحسن، آخرتها سيقولون «مرة أبو»....

ثم تعود لتبرّر أنّ القسوة هي التي تربّي النساء، وتجعل منهنّ نساءً حقيقيات.

ولقد كان السبب الذي دفع أبي للزواج بها، هو أنها امرأة عاقر، وستغمرني بالحنان تعويضاً عن حرمانها من نعمة الأمومة، ولن يأتيها يوماً ما أبناءٌ يجعلونها تفرّق بيني وبينهم. لكنّني أدركتُ حين كبرتُ، وصرتُ أمّاً، أنّ الأمومة شيء لا نتعلّمه.

لا أعلم كيف برَّر أبي زواجَه يومها من هذه المرأة، بحجة أنّني صغيرة، وأحتاج من يرعاني، في حين كَفَّ هو عن رعايتي، وهو يراها تثقل كتفيّ الصغيرتيْن بحمولةٍ تنوء بها طفولتي وصبري. لكنّه كان على حق، لأن زوجته تغلق على من يقف أمامها منافذَ الهواء، فلا يعود يطلب سوى الستر واتّقاءِ الفضيحة. وأبي رجل مسالم لا يحبُّ الشجارَ، ويخشى الفضائحَ والأقاويلَ التي ستنسج خيوطَها حوله فيصير خميرتَها.

عند هذا الحد من تبرير الأمور توقّفَت حياتنا، لندخلَ في سلام قدري، يقبل الأمور كما تأتي، لأن الله هناك يسمعنا ويشعر بنا.

*

عمّتي الكبيرة «موضي» تسكن بجوارنا، في البيت المقابل. بابهم دائماً موارب، لا يُغلَق إلا بعد صلاة العشاء. وحين يهمّ الجميع بالنوم، وافتقد البابَ من يعسّه ذات ليلة، فإنّه يبقى مفتوحاً حتى أذان الفجر. وعندما يعود زوج عمّتي من المسجد، يتركه مواربا، لأن الصبح لا يخبّئ وراءه أحداً.

كنت أحب عمّتي موضي، لأنّها تشبه أبي كثيراً في حنانها الدافق. لكنها أكثر حكمةً منه، فهي لا تدع الخير ينكفئ متحسّراً، كما يفعل أبي حين يغلق باب حجرته ليحجب عنه صوتَ بكائي – الذي يوجعه حين تضربني زوجتُهُ. ورغم طيبة عمّتي، فقد كانت أكثر حزماً من أبي. ولأنّها تعرف أخاها جيّداً، فإنّها كَفَّتْ عن التدخّل في أمر شجارنا مع زوجته، لكنّها ناضلت كثيراً لتصدَّ عني بعضَ أذاها بأن طلبتْ منه أن أمضي بقيّة النهار في بيتها لأسلم من الضرب. ولمّا كان أبي لا يحب الدخول في أعماق الأمور فقد وافق، عسى أن يجعل هذا الحل بيتَه أكثرَ هدوءاً. وصارت لعمّتي، وغرفتها، حكاياتُ متع جديدة، راحت تسرّي عنّي جفافَ الأيام وقسوتها. بل إنّ شعري توقّف عن النموّ إلا حين راحت تضفره؛ فقد كانت تغنّي لهُ وَتَدعوه أن يطول، ليأتي الفارسُ الهمام، ويخطف حبّي عقلَهُ، فيحملني على سجّاد عجمّي تطوّقُهُ رقصاتُ البنادق المشتعلة بأقدام الرجال، وهم يغنّون في عرس الجميلة. لذا أحببتُ شعري، لأنه صار مظلّتي التي تمطر بحكايات عمّتي في أماسي الوحدة، وأنا نائمة، وتحميني من الغول الذي يشبه زوجة أبي.

كان لعمّتي صندوق كبير، من خشب السنديان – تسميه السحّارة – مرصّعٌ بقطع نحاسٍ مدوّرة، ومزلاجُهُ الذهبيّ يَصرُّ في يدها كلّما همَّتْ بفتحه.. كنت وأنا طفلة، لا أَمَلُّ التنقيبَ فيه، ولا أكاد أصل إلى قطع الحلوى حتى تمدّها لي

من مخبئها السرّيّ. حتى حلواها لها رائحةٌ غريبة تمرّ الآن من تحت أنفي، رائحةٌ تعبق بالعنبر والمسك والزعفران والمعمول. و«لبانها المرّ» الذي يتفتّت بين أسناني، ويذوب في حلقي دون أن أشعر بذلك، تظل رائحته تنبعث مع أنفاسي، حتى صباح اليوم التالي.

وفي صندوقها أيضاً، أكياسٌ قماشيّة، أفواهُها مضمومةٌ بخيوط من القيطان البيض، تنبعث منها رائحةُ سدر وحنّاء. وعقود عمّتي تبعث هي الأخرى على الدهشة، ولا أعرف عددها، لكنني في كل مرّة أرى عقداً يشبه الآخر، بخرزات من لون مختلف: فهي برتقالية، وزرقاء، منظومة كحبّات المسبحة، تتوسّطها قطعةٌ مدوّرة من الذهب، عليها رسوم غريبة، أدركتُ فيما بعد أنها زخارفُ فارسيّة، وهنديّة، أو بحرينية.

تتركني عمّتي طوال الوقت أتفحّص السحّارة، وهي تعرف أنّني لن أشبع منها. ولأنّ وقت الضحى قصير، فإنّها تتركني إلى سجادتها لتصلّي، ثم تحاول شدّي نحوها حين تفتح قرآنها الكبيرَ، ذا الأحرف الكبيرة، وتناديني:

– النوري[1] (لا أحد يناديني بهذا الاسم غيرها لأنها هي وحدها التي تدلّعني) وش هالكلمة؟

فأنظر في القرآن وأقرأ لها كلمتها الصعبة، وأحياناً أتمدّد تحت جذعها الدافئ وعذوبةِ قراءتها وأدخل في لجّة الأخيلة حتى أنام. عندها تحملني شراسةُ الوقت إلى بيتنا، لأكنس الحوش، وأغسل الصحون، وأكتب في كراريس المدرسة واجباتٍ كثيرة يتقاسمها النومُ مع بياض الورق.

*

تعلمتُ، حين كبرتُ، كيف أقاوم شراسة زوجة أبي. وكانت عمّتي تدفعني بنظرات مطمئنة إلى أن أكون امرأة قويّة ولكنْ عاقلة. فصرتُ أقضي النهار في بيتها، فأنجز واجباتي المدرسيّة، وأنام ملءَ جفوني، وأملأ معدتي بخبزها الحار، تاركةً عمل البيت وخدمته لزوجة أبي. وقد راحت هذه تتوّعدني، وتُهيّض همَمَ أبي ليمنعني من البقاء مع عمّتي، وحين لم تجاوبها سوى صفقات الباب وهو يقفله خارجاً، راحت تتركه في كل يوم بلا غداء، فصار يأتي ليتغدّى معنا في بيت عمّتي فتجلس زوجته وحيدةً تقضم فراغها وحسرتها؛ بل صار أبي أحياناً يُمضي قيلولته معنا، وبدلاً من أين يهيّئ لي طريقَ الخلاص راح يتبعني نحوه.

كبرتْ عمّتي ولم أصدّق أنّها تكبر، لأنني كنت أُحسُّها تزداد حُنوّاً وشفافية. وعندما صارت تطلب منّي، وأنا فارعة الطول، أن أمدّ يدي لتتّكأ عليها وهي تنهض وساقاها ترتجفان ضعفاً، اعتقدتُ أنها تعاني من «روماتيزم المفاصل» الذي لا يوفّرُ أحداً. وحتى عندما صارت تدخل في سَبْخَة النوم وهي جالسة، رحتُ وأبي نعيِّرها بالكِبَرِ مزاحاً، قائلين:

– عمّتي، يالله قومي نامي وخلّي السهر للشباب!.

فكانت تنهض وهي تردّد: يالله حسن الختام.

لكنّ عمّتي التي لازمت الفراشَ أيّاماً طويلة، وصوتها الواهن يختصر العباراتِ إلى إشاراتٍ، أيقظتْ في نفسي خوفاً لم يُرِدْ أن يصدّق أنّ عمّتي قد تشيخ وتهرم. فلم أتمالك نفسي ورحتُ أبكي عند قدميها، وألومها بأنانيةِ طفلةٍ تحاول التشبّث بأمّها لكي لا ترحل:

– عمّتي هل ستتركينني أنت أيضاً؟

– يا ابنتي، كلُّ نفسٍ ولها كتاب.

ثم أشارتْ نحو السحّارة، وقلبي يتهشّم ببكاء مرّ، وأنا أنظر إلى الصندوق، ثم إلى عمّتي لأدرك ما تقول:

– يا ابنتي هذه السحّارة لن تكون لسواك، لقد كانت سلواك وأنت طفلة ومخبأك من زوجة أبيك. هل تذكرين عندما كنت صغيرة؟ كانت دموعك تجفّ وهي تبرق حين تنظرين إلى حلواها وتدخلين فيها ضاحكةً من أوجاع الأطفال التي تُنسى.

ثم أضافت وهي تخفض صوتها:

– هذه السحّارة فيها سرّي، سأكون داخلها أُنصت لك، وأرقبك بعناية، وحين تريدنني سأكون قريبة منك، وسأهتمّ بك عند الحاجة. فلا تخافي، إنْ ضاقت بك دنياك افتحيها في ظلال اللّيل وستجدين وجهي يقابلك؛ فإن كان يضحك فهو الرضا بما تسألين عنه، وإن كان غير ذلك، فهو كما رأيتِهِ.

*

كان فقدان عمّتي أمراً بالغ الصعوبة. وقفت وحدي في عزائها، كما لو كنت ابنتها الوحيدة، في حين اعتنى أبناؤها بالمعزّين الرجال، وزوجاتهم أخذن يعتنين كثيراً بآداب العزاء، ويمرّرْن فناجين القهوة المرّة على المعزّيات دون إهمال، فيما رحت أفكّر في أيّ صحراء شاسعة من الوحدة يرميني إليها رحيلُ عمّتي، وأيّ شمس ستحرق جبهتي. وتعلّمت أن التسلّح بالصبر، ذلك الدرس القديم، قد حان وقته دون خيار!

حين اعتدتُ الوقوف على سحّارة عمّتي، دون أن يتهشم صدري بالبكاء، رحت أسلّي نفسي بأشياء عمّتي في ظلام

(١) النوري تدليل لاسم نوره.

الليل كما اشترطتْ، ورحت أتنشّق زعفرانها وحنّاءها وعنبرها المخلوط بالمسك. وإذا ما أردتُ يوماً اختبارَ أمرٍ محيِّر رحتُ ألوذ بوجه عمّتي، كما حدث معي ذات يوم، حين جاء أبي ليخبرني بخطبة «سالم» ابن جارنا لي. ورغم أنّ «سالم» هو الرجل الوحيد الذي لا يعكّر صفوي البوحُ باسمه في أمسيات الوحدة، ورغم شعوري بقربه منّي (حتى حين كان يدرس بعيداً في الرياض) فإنّ أمراً كهذا كنت أدرك أنّ عمّتي هي وحدها من سيشير عليَّ بطريق الخلاص منه. فقد قلت لأبي حينها:

- سأستشير عمّتي.

وركضت إلى غرفتها.

ربما هُيِّئ لأبي أنني سأصاب بلوثةٍ في عقلي، بسبب فقدي لعمّتي التي كان يعرف مدى تعلّقي بها؛ ولهذا فقد كان حريصاً على تزويجي قبل أن أُجَنّ. وربّما ظنَّ أيضاً أنني أداري خجلي، وفرحي، وحزني، لافتقادي عمّتي في هذا الوقت، بالركض إلى غرفتها، والبكاء. لكنّني بالفعل كنت أهفو إلى سحّارة عمّتي، لأفتحها، فتضيء لي عيناها، وأسنانُها الصغيره المتّسقة التي تلمع بانتظام.

عرفتُ ساعتَها أنّ عمّتي تباركني، ولا تخشى عليَّ من أمر هذه الزيجة.... فتزوجتُ!

*

وحين انتقلتُ إلى بيت زوجي سالم، حملتُ سحّارة عمّتي معي. ولأنّ صفحة حياتنا كانت هادئة كوجه نهرٍ أيامُهُ الماضيةُ لا تشبه الأخرى، فقد رحت وزوجي وطفليَّ، نُغرف من النهر حكمةً لا تنضب. وصارت سحّارةُ عمّتي مركونةً في أسفل الخزانة. حتى جاء يومٌ، علا فيه صراخُ الصغيرين، وسباقُهما نحوي، كلٌّ منهما يحرص على سبق الآخر، ليبرّأ نفسه.

صاح عبد الله: «يمّه هو الذي فَعَلها!»

وراح الآخر يقسم: «بل هو يا يمّه هو...!»

اتّجهت نحو الغرفة، التي خرجا منها، أركض.... فإذا الخزانة المفتوحة تطرح صندوقَ عمّتي على وجهه، وحنّاؤها منتشر على الأرض، ورائحته لم تزل عبقة نديّة كما كانت من قبل، وعقودها تتكوّم في جانب آخر. رفعته، وقلبي ينكسر، حين سمعت صوت مرآة تنشطر، وهي تسقط من وجه غطاء السحّارة. ولم يعد الغطاء من الداخل، سوى لوح أسودَ، لا يضيء بداخله وهجٌ ولا عينان. رفعتُ المرآةَ بحذر، وأنا أضحك لطفولتي ، ودفء عمّتي التي كانت تحملني في كلّ مرّة أفتح السحّارة على مشاهدة وجهي دون أيّ شيءٍ آخر. واشتدّ ضحكي حين أدركتْ مدى شَبَهي لعمّتي!

هل تعرف أمريكا؟

عدد ٣ - ٤ من الآداب لعام ١٩٩٦:

كورنل وست

[المثقف الأمريكي الأسود: الموقف والمأزق]

تعرف إلى واحد من أبرز المثقفين الأمريكيين / الأفارقة، وهو يقدم صورة شاملة عن واقع السود في أمريكا الشمالية، ومأزق القيادة السوداء، والمثقف الأسود هناك، ويطرح الحلول التي يستنبطها من المادية والدين وموسيقى الجاز!

ملف ضخم من إعداد وتأليف وترجمة وتعليق:

سماح ادريس

يشتمل الملف على تعريف بأهم أعلام الثقافة والفن في أمريكا السوداء، مع صور فوتوغرافية للكثيرين منهم.